المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
وكالة الوزارة لشؤون المساجد والدعوة والإرشاد

الخطاب الديني المعاصر

تأليف
عبد الرحمن بن علي بن محمد العسكر

دار الصميعي للنشر والتوزيع

الخطاب الديني المعاصر

ح دار الصميعي للنشر والتوزيع، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العسكر، عبدالرحمن علي
الخطاب الديني المعاصر/ عبدالرحمن علي العسكر، الرياض، ١٤٣٤هـ
ص ١٦١ سم: ١٧×٢٤
ردمك: ٣- ٢٧٦٠-٠١-٦٠٣- ٩٧٨
١- الدعوة الإسلامية ٢- الإعلام الإسلامي ٣- التوعية الدينية أ. العنوان
ديوي: ٢١٣ ١٤٣٤/٧٥٥٨

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٧٥٥٨
ردمك: ٣- ٢٧٦٠-٠١-٦٠٣- ٩٧٨

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م

دار الصميعي للنشر والتوزيع، المركز الرئيسي السويدي، شارع السويدي العام -الرياض
ص. ب: ٤٩٦٧/ الرمز البريدي: ١١٤١٢هاتف: ٤٢٦٢٩٤٥، ٤٢٥١٤٥٩ فاكس: ٤٢٤٥٣٤١
فرع القصيم: عنيزة، بجوار مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية
هاتف: ٣٦٢٤٤٢٨، فاكس: ٣٦٢١٧٢٨ مدير التسويق: ٠٥٥٥١٦٩٠٥١
المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: daralsomaie@hotmail.com

دار الصميعي للنشر والتوزيع

الخطاب الديني المعاصر

تأليف
عبد الرحمن بن علي بن محمد العسكر

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد اقتضت سنة الله أن تكون الحياة صراعا بين الحق والباطل وبين الخير والشر، منذ أن بعث الله آدم عليه السلام وإلى قيام الساعة، يقول الله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وبعث الله أنبياءه ورسله عليهم السلام لربط الخلق بربهم سبحانه وإحياء الدين الصحيح؛ حتى ختمهم بمحمد ﷺ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وجعل الله من أمة محمد ﷺ من يجدد هذا الدين ويصحح تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وتحريف الغالين، ويعيدوا للدين وجهه الصحيح نقيا صافيا كما جاء عن محمد ﷺ.

ولا زال أعداء الحق ومن تحلوا الباطل يحاولون إلصاق التهم وإثارة الشبه بهذا الدين، رغبة في الصد عنه، أو السير خلف كل من ينادي بالتغيير دون تمعن في ذلك.

وكان من أكبر ما وجهت إليه التهم جزافا: الخطاب الصادر باسم الدين الإسلامي، والمطالبة بتغييره لأن تغييره قد يؤدي إلى تغيير الدين كله.

وقد رأيت الكتابة في موضوع الخطاب الديني المعاصر وهجمة خصومه عليه، رغبة في إيضاح ما ألبس بالخطاب الديني من تهم، وتصحيح الموقف الشرعي من ذلك.

ومع أن غالب من كتبوا في هذا الموضوع اتصفت كتاباتهم بالإسهاب والإطالة، إلا أني سلكت في ذلك سبيل الاختصار، وذلك وفق العناصر التالية:

- مفهوم الخطاب الديني المعاصر: تكلمت فيه عن معنى الخطاب والدين في اللغة ثم المفهوم الجامع لمعنى الخطاب الديني.
- نشأة فكرة الخطاب الديني: أوضحت فيه تاريخ هذا المصطلح والظروف الداعية لإطلاقه.
- حقيقة إصلاح الخطاب الديني المعاصر: تطرقت لصور المطالبة بإصلاح الخطاب الديني، التي من أبرزها تجديد الخطاب الديني، وأوضحت معنى التجديد في اللغة ووفق ما ورد في الكتاب والسنة، ومعنى تجديد الخطاب الديني، وذكرت نماذج من معالم تنويع الخطاب الديني عند النبي ﷺ، ثم ختمت بمعالم تجديد الخطاب الديني المطلوب بوجه عام وعند الداعية والخطيب خاصة.
- أبرز دعاوى الخصوم حيال الخطاب الديني والرد عليها: سلكت في ذلك سبيل التعداد لأبرز ما وجه إلى الخطاب الديني، ثم ذكرت الأسباب الداعية لذلك وفق ما ورد عن النبي ﷺ، التي يستقى منها الرد على جميع ما وجه إلى الخطاب الديني.

- واقع الخطاب الديني في المملكة العربية السعودية: والتمثيل بواقع المملكة من خلال ما نص عليه نظامها الأساسي للحكم ثم ذكرت أسباب ما يرد على الخطاب الديني فيها من تهم وشبه.
- السبب في توجيه التهم للخطاب الديني في المملكة العربية السعودية دولة وأفرادا والرد على ذلك.

وقد راعيت في جميع ما كتبت أن يكون الكلام في ذلك عاما دون نسبة قول لفرد أو جماعة، لأن الرد إنما يكون على القول بغض النظر عن قائله، وذلك لتعدد القائلين بتلك الأقوال، وتنوع عباراتهم، وحتى لا يظن أن المقصد طائفة بعينها دون أخرى[1].

والله تعالى اسأل أن يرزقني الإخلاص في القصد، والصواب في القول والعمل، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عبد الرحمن بن علي بن محمد العسكر

---

(١) عرضت هذا الكتاب قبل طبعه على معالي شيخنا الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء وعلى معالي الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، فقرأ الكتاب كاملا، وعدلا منه مواضع، وزادا رؤى وأفكارا في مواضع أخرى، أكرمهما الله بفضله، إذ أكرماني بقراءته.

مفهوم الخطاب الديني

أولا: معنى الخطاب في اللغة:

الخطاب الديني مركب من كلمتين، لا بد من معرفة كل كلمة لوحدها ليسهل بعد ذلك مفهومهما مجتمعتين.

فالخطاب في اللغة: كما قال في لسان العرب: الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان[١].

وقال في الجمهرة: والخطاب: مصدر خاطبته مخاطبة وخطابا[٢].

وقال في تاج العروس: والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾، [هود: ٣٧، والمؤمنون: ٢٧] وفي حديث الحجاج (أمن أهل المحاشد والمخاطب)[٣]، أراد بالمخاطب: الخطب، جمع على غير قياس، كالمشابه والملامح، وقيل: هو جمع مخطبة، والمخطبة: الخطبة، والمخاطبة: مفاعلة من الخطاب والمشاورة أراد: أأنت من الذين يخطبون الناس ويحثونهم على الخروج والاجتماع للفتن[٤].

---

(١) لسان العرب ١/ ٣٦١.

(٢) جمهرة اللغة ١/ ١٢٣.

(٣) هذا جزء من سؤال سأله الحجاج بن يوسف للنعمان بن ضمرة لما أمسك به مع ابن الأشعث، فقد دار بينهما حوار قال فيه الحجاج سائلا النعمان: فمن أهل الرس والبس والدهمسة والدخمسة والشكوى والنجوى، أم من أهل المَحَاشد والمَشَاهد والمَخَاطب والمَوَاقف؟.

انظر القصة كاملة في مجمع الأمثال ٢/ ١٧٨.

(٤) تاج العروس ١/ ٤٦٣.

وبهذا يظهر من خلال تفسير علماء اللغة للخطاب أنه يستعمل عموما للدلالة على توجيه الكلام لمن يعقل ويفهم، فالخطاب كلام بيِّن مقصود، يلقى بغرض التواصل والتخاطب ويستلزم لتحققه طرفان: مخاطِب ومخاطَب، والسمة المميزة له: البيان والإفهام والبعد عن اللبس والإبهام، وبهذا يشمل جميع تعاليم الدين الإسلامي[١].

الخطاب في القرآن الكريم:

وردت في القرآن الكريم مشتقات خَطْب تسع مرات، وورد لفظ خطاب ثلاث مرات، ومما يناسب المقام قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

قال بعض المفسرين في تفسير (الخطاب) في الآية: هو الحكم بالبينة أو اليمين، وقيل: معناه أن يفصل بين الحق والباطل، ويميز بين الحكم وضده، أو هو الفقه في القضاء، أو هو النطق أما بعد[٢].

والملاحظ في هذه الآية الكريمة أن الخطاب مقرون بالحكمة، مما يفتح النظر في ذلك، والأهمية التي ربط الله بها الخطاب بأن يكون حكيما رشيدا، لأن «فصل الخطاب» لا يتم على الوجه الأفضل، إلاَّ إذا اقترن بالحكمة، وكان القصد منه تبيان وجه الحق على أكمل الوجوه وأتمها[٣].

ثانيا: معنى الدين في اللغة:

قال في القاموس المحيط: والدِّيْنُ، بالكسر: الجَزاءُ، وقد دِنْتُه، بالكسر، دَيْناً،

---

(١) مظاهر التجديد في الخطاب الديني الإسلامي المعاصر د. محمد الفران ١٧-١٨، بتصرف.

(٢) انظر تفسير النسفي ٣/ ١٤٩.

(٣) انظر الخطاب الإسلامي بين الأصالة والمعاصرة لعبد العزيز التويجري فصل في مفهوم الخطاب.

ويُكْسَرُ، والإِسْلامُ، وقد دِنْتُ به، بالكسر، والعادةُ، والعِبادةُ، والمُواظِبُ من الأَمْطَارِ أو اللَّيْنُ منها، والطاعة، كالدِّيْنَة، بالهاء فيهما، والذُّلُّ، والداءُ، والحِسابُ، والقَهْرُ، والغَلَبَةُ، والاسْتِعْلاءُ، والسلطانُ، والمُلْكُ، والحُكْمُ، والسِّيرَةُ، والتَّدْبيرُ، والتَّوْحيدُ، واسْمٌ لجميعِ ما يُتَعَبَّدُ الله عَزَّ وجلَّ به، والمِلَّةُ، والوَرَعُ، والمَعْصِيَةُ، والإِكْرَاهُ[1].

ولعل قوله: (اسم لجميع ما يتعبد الله عز وجل به) هو التعريف الجامع لمعنى الدين في اللغة وهو المناسب هنا.

ثالثا: المفهوم الجامع للخطاب الديني:

يمكن مما سبق في معنى كل من الخطاب والدين أن نحدد المقصود بالخطاب الديني بأنه هو: كل خطاب صادر من شخص أو جهة، يدور مضمونه حول الدين، سواء كان بيانا، أو إيضاحا، أو تطبيقا، أو تعليما، أو غير ذلك من وسائل التعبير، في جميع مناحي الحياة المختلفة.

كما يمكن رسم تعريف موجز للخطاب الديني بأنه هو: كل بيان باسم الدين، يوجَّه للناس كافة، سواء كان ذلك قولا، أو فعلا، أو كتابة، أو تطبيقا، صادر من شخص، أو جهة، في جميع مناحي الحياة المختلفة[2].

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي ٣/ ٣٢٦.

(٢) عرف الدكتور محمد الفران في كتابه مظاهر التجديد في الخطاب الديني الإسلامي المعاصر ٧١-٧٢ بتعريفات مطولة، رأيت انتخاب التعريف السابق من مجمل ما ذكره.

نشأة فكرة الخطاب الديني

لم أجد أحدا من متقدمي علماء الشريعة خص ما يسمى بالخطاب الديني بحديث محدد، وإنما يفسره كل أهل فن حسب فنهم، فالأصوليون تعاريفهم معروفة في معنى الخطاب وتقسيماته، وأهل التفسير لهم تعريفهم للخطاب في القرآن، وأهل الحديث لهم مدلولاتهم في معنى خطاب النبي ﷺ، إلى غير ذلك من العلوم.

لكني أرى أن المقصود من إطلاق عبارة (الخطاب الديني) ليس المقصود بها ما يعنيه العلماء المتقدمون حسب كل فن، وليس المقصود به ما تعنيه دلالة الخَطَابة، فالخطابة تعد شكلا من أشكال الخطاب الكثيرة، بل كما سبق أن ذكرت في تعريفه بأنه بيان باسم الدين، يوجه للناس كافة، سواء كان ذلك قولا، أو فعلا، أو كتابة، أو تطبيقا، صادر من شخص، أو جهة، في جميع مناحي الحياة المختلفة.

وتواضع الناس أو فئة منهم على وضع كلمة معينة للدلالة على معنى محدد لا مشاحة فيه، ما لم يكن ذلك مخالفا لأصول شرعية، أو يقصد به إخراج بعض ما تشمله تلك الكلمة من معان، لغرض يعود على الشريعة بالضرر.

غير أني أظن أن نشأة لفظة الخطاب الديني كانت بسبب أحد أمرين[1]:

---

(١) توسع الدكتور سعيد بنسعيد العلوي في مقال نشره بمجلة التاريخ العربي الصادرة في المغرب العدد الرابع عشر ربيع ٢٠٠٠م ص/٥٩، بعنوان: التحديث والتجديد في الفكر العربي الإسلامي المعاصر، في ذلك وأوضح علاقة نشأة هذه المسميات بنشوء بعض الجماعات الإسلامية، واستشهد بكلام مؤسس جماعة الإخوان المسلمين حسن البنا رحمه الله ومن جاء بعده، وكثير من التيارات الأخرى.

الأول: وجود خطابات أخرى في المجتمع، ونشوء تنظيمات وأفكار داخل التيارات الإسلامية، مما أوجد الحاجة إلى إيجاد خطاب ديني مكافئ لها، فهناك الخطاب القومي، والخطاب الليبرالي، والخطاب النفعي المادي، وغير ذلك من الخطابات.

الثاني: بسبب النظرة الدينية، التي تدعو إلى فصل الدين عن مجريات الحياة، ولذلك جعلوا توصيف الوضع أو الحالة بأنها خطاب ديني، ليسهل بعد ذلك إبعاده ورفضه.

التسمية بالفكر الإسلامي:

ويمكن أن يورد هنا بأن يكون المقصود بالخطاب الديني ما يسمى بالفكر الإسلامي، فهل يصح الاستعاضة عن لفظة الخطاب بلفظة الفكر؟

يرى بعض الباحثين بأن بين الفكر والخطاب تباينا واضحا، فالفكر يمكن أن يوصف به حال المجتمع، أما الخطاب فهو عبارة عما يصدر من أفراد المجتمع ومؤسساته[١].

وإن كان جمع من العلماء لا يوافقون على صحة التسمية بالفكر الإسلامي، لأنها تؤدي إلى جعل الدين كالأفكار، والأفكار قابلة للأخذ والرد، وقابلة للنقاش، وهذا غير صحيح، ولا يجوز اعتبار الدين كذلك[٢]، غير أن مصطلح الخطاب الديني بتعريفنا الذي ذكرناه، يمكن التسليم به، ولا مشاحة في الاصطلاحات.

---

(١) انظر: مظاهر التجديد في الخطاب الديني الإسلامي المعاصر / ٥٦-٥٧.

(٢) انظر: المناهي اللفظية للشيخ محمد بن عثيمين الأسئلة ٤٨-٧٢-٧٣، ومعجم المناهي اللفظية لبكر أبو زيد ٢٢١، وكذلك محاضرة صوتية لمعالي الشيخ صالح آل الشيخ بعنوان العلم والفكر.

ورأيت لبعض الباحثين رأيا حول الخطاب الإسلامي[١]، وأنه رديف للدعوة الإسلامية، وأرى أن ذلك غير صحيح، لأن الخطاب الدعوي هو أحد أفراد الخطاب الديني أو الخطاب الإسلامي على تعدد الإطلاقين، وحصر الخطاب الإسلامي بالخطاب الدعوي فقط، هو تحجير له، وإخراج لبقية ما يدخل تحت الخطاب الإسلامي مما بيناه سابقا.

وهذا الحصر يخرج الكلمة عن معناها اللغوي، كما أنه يورد على التعريف إيرادات معروفة عند أهل الأصول.

لكن قد يكون الخطاب الدعوي نوعا من أنواع الخطاب الديني، أو أحد أفراده.

(١) انظر الخطاب الإسلامي بين الأصالة والمعاصرة لعبد العزيز التويجري فصل في دلالة الخطاب الإسلامي، رغم أنه أشار في فصل آخر في البحث في فصل: مستقبل الخطاب الإسلامي، إلى أن الخطاب الإسلامي يجب أن لا يكون قاصرا على الوعظ والإرشاد فقط بل يشمل أكثر من ذلك.

حقيقة إصلاح الخطاب الديني وصلتها بخصوم المنهج السلفي

مما سبق ظهر أن المقصود بالخطاب الديني هو كل ما له علاقة بالدين في جميع شؤون الحياة، والدين منه ما هو مجمع عليه، ومنه ما هو محل اجتهاد، وكلاهما مربوط بما ورد في الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وهذان المصدران باقيان محفوظان إلى يوم القيامة، واجتهاد العلماء فيما هو محل للاجتهاد إنما هو من اختلاف نظرهم في فهم ما ورد في الكتاب والسنة.

المطالبون بإصلاح الخطاب الديني وهدفهم:

ولعل من الأمور التي كانت محل اختلاف نظر بين العلماء وبين الناس ما يتعلق بالخطاب الديني، فقد ظهرت المناداة مؤخرا بإصلاح الخطاب الديني، وهذه المناداة وردت من جهتين:

الجهة الأولى: جهة خارجية، من خارج المسلمين، وغالبا ما تكون من الدول الكبرى في العالم، التي تريد تحقيق نفوذها على العالم، أو تبرير بعض المواقف والأخطاء، ونسبتها إلى الدين الإسلامي، رغبة في الصد عنه، وتشويه صورته.

الجهة الثانية: جهة داخلية، من أبناء المسلمين، ويحدوهم لذلك عدة أمور منها ما يكون بسبب عدم استيعابهم لسعة دين الإسلام وقصور فهم، أو قلة علم بالشريعة، أو تشبعهم ببعض الأفكار، ويريدون إيصالها عن طريق المطالبة بإصلاح الخطاب الديني.

وقد يكون هناك سبب ثالث تشترك فيه الجهتان، كرغبتهم الأذية لبعض الدول المتمسكة بدين الإسلام، كما هو الحال بالنسبة للدعوة لإصلاح الخطاب الديني في المملكة العربية السعودية، فهو بارز من الجهات الخارجية، وقد يستغل قصور بعض أفراد المسلمين من قبل جهات خارجية في المناداة بالإصلاح، فيكون أولئك الأفراد موافقين لجهات خارجية من حيث لا يعلمون.

ولا يمكن الحديث عن قضية الدعوة بإصلاح الخطاب الديني بإطلاق، لكن لأن غالب الدعوات تجتمع في مسألة واحدة وهي المناداة بتجديد الخطاب الديني، فسأكتفي بمناقشة هذا المفهوم، وبيان الوجه الشرعي فيه.

تجديد الخطاب الديني:

من أبرز المطالبات التي برزت في السنوات الأخيرة -كما أسلفت- المطالبة بتجديد الخطاب الديني.

وقبل الإفاضة في إيضاح ومناقشة هذه الدعوى، لا بد من إيضاح حقيقتين، يسهل بعدهما الحديث عن ذلك، وهما:

الحقيقة الأولى: في معنى التجديد كما ورد في اللغة العربية، وما يدل عليه الكتاب والسنة.

الحقيقة الثانية: في بيان مجيء الأدلة الشرعية بالدعوة إلى التجديد في الدين الإسلامي.

معنى التجديد في اللغة العربية:

كلمة التجديد في اللغة مأخوذة من جدد يجدد وتجدد الشيء صار جديدا، ومصدرها الجدة والجد، قال في الصحاح: وجدَّ الشيء يجُدُّ بالكسر جِدَّة: صار

جديداً، وهو نقيض الخَلَقِ، وتجدد الشيء: صار جَديداً، وأَجَدَّهُ، واسْتَجَدَّهُ، وجَدَّدَهُ، أي صيَّره جديداً[١].

وقال في المخصص رحمه الله: جَدَّدته -أَعَدْته جَدِيداً والجَديد من الأَشْيَاء- مَا لم يَكُن بعدُ فوقَع حَدِيثا يقُولون مَوْتٌ جَدِيدٌ[٢].

ولا يخرج المعنى اللغوي للتجديد عن أحد ثلاث دلالات:

الأولى: أن الشيء المجدد قد كان في أول عهده مألوفا ومشاعا بين الناس.

الثانية: أن هذا الشيء أتى عليه حين من الدهر فأصابه البلى والابتذال بالاستعمال.

الثالثة: أن ذلك الشيء المجدد قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى ويخلق[٣].

ولعل الدلالة الثالثة هي أقرب الدلالات لمعنى التجديد في الخطاب الديني، لأنها هي المتوافقة مع ما جاء به الكتاب والسنة -كما سيأتي-.

معنى التجديد في الكتاب الكريم والسنة المطهرة:

بما أن الحديث متعلق بالخطاب الديني؛ فإن من المؤكد أن ننظر إلى معنى التجديد في الكتاب والسنة، لأنهما هما المصدر للتشريع، وليرتسم بعد ذلك المعنى الشرعي لهذه العبارة.

وقد وردت كلمة الجديد في القرآن الكريم في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:

---

(١) الصحاح في اللغة للجوهري ١/ ٨٣.

(٢) المخصص لابن سيده ١/ ٣٤٢.

(٣) أوسع الحديث في ذلك د.محمد الفران في مظاهر التجديد في الخطاب الديني ٨٣-٨٥.

١٩]، وقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، والغالب في دلالة هذه اللفظة في القرآن في هذين الموضعين وغيرهما هو معنى الإحياء والبعث[١].

أما في السنة النبوية فقد ورد لفظ التجديد في الحديث المشهور، الذي رواه أبو داود وغيره بسند صحيح عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[٢]، وجاء حديث آخر يعد مفسرا لهذا الحديث، ذكره غير واحد عن الإمام أحمد أنه قال: يروى في الحديث عن النبي ﷺ «أن الله يمن على أهل دينه في رأس كل مائة سنة يبين لهم أمر دينهم»[٣]، وهذا الحديث الأخير وإن كان ضعفه ظاهر عند أهل الحديث[٤] إلا أن ذكره هنا إنما هو من باب الاستشهاد.

---

(١) انظر مظاهر التجديد في الخطاب الديني الإسلامي وقد نسب ذلك للغزالي في إحياء علوم الدين ٨٥.

(٢) رواه أبو داود في سننه ٣٧٤٠، والبيهقي في السنن والآثار ١/ ١٢١، والحاكم في المستدرك ٨٧٣٨ وغيرهم، وصحح إسناده غير واحد، منهم الإمام أحمد بن حنبل والزين العراقي كما ذكر ذلك المناوي في فيض القدير ٢/ ٢٨٢، وصححه أيضا الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة / ٢٠٣، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني ٢/ ١٥٥.

(٣) ذكره بإسناده إلى الإمام أحمد أبو نعيم في الحلية ٩/ ٩٧-٩٨، والهروي في ذم الكلام / ٢٤٦، وابن حجر في توالي التأسيس في ترجمة محمد بن إدريس / ٤٨، وانظر عون المعبود ٩/ ٣٢٦.

(٤) انظر طبقات الشافعية للسبكي ١/ ١٩٩، والانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء لابن عبدالبر / ١٢٦.

وبناء على ذلك، فإن التجديد قد ورد في السنة النبوية، ولكن اختلفت تفسيرات المحدثين لمعنى التجديد الوارد في الحديث، وهي مجتمعة في ثلاثة معان[١]:

المعنى الأول: أنه هو إحياء ما اندرس من السنة، أو إحياء الدين، وهذا هو تفسير الزهري وابن حجر[٢].

وقال العلقمي في شرحه[٣]: معنى التجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما.

ويرى ابن الأثير في جامع الأصول: أن المقصود بالتجديد هو حفظ المذاهب الفقهية التي عليها مدار المسلمين[٤]، ومن هذا الباب سمي بعض العلماء بالمجددين، كالإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب تغمده الله تعالى الذين أحيا ما اندرس من السنة وتعاليم الشريعة.

المعنى الثاني: أن المراد بالتجديد هو محاربة البدع والدعوة إلى التشبث بالسنن، وهذا رأي الإمام أحمد بن حنبل، حيث استشهد بذلك الحديث السابق على اعتبار

---

(١) انظر كتاب: التجديد في الفكر الإسلامي د. عدنان محمد أمامة / ١٦-٢٠، ومظاهر التجديد في الخطاب الديني الإسلامي/ ٨٦-٩٠.

(٢) انظر رأي ابن حجر في توالي التأسيس في ترجمة محمد بن إدريس / ٤٨، وفتح الباري ٢٠/ ٣٧٠، وأشار إلى رأي الزهري.

(٣) انظر عون المعبود ٩/ ٣٢٦.

(٤) جامع الأصول ١١/ ٣٢١، وقد تكلم تغمده الله بكلام بديع عن معنى التجديد.

الإمام الشافعي رحمهما الله جميعا أحد من ينطبق عليهم الحديث، لسعيه الدؤوب للعمل بالسنة ومحاربة البدعة.

وهو أيضا تفسير المناوي وصاحب عون المعبود حيث قال: يجدد أي يبين السنة من البدعة، ويكثر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة ويذلهم[١].

المعنى الثالث: أن المراد بالتجديد الاجتهادات الفقهية الجزئية، المرتبطة بالفروع لمستجدات الحياة.

ولعل من أبرز من يرى هذا المعنى السيوطي رحمه الله، الذي ألف رسالة في ذلك، عدد فيها المجددين مع كل مائة سنة، وجميعهم من فقهاء الشافعية، فكأنه جعل معنى التجديد: الاجتهاد في المسائل الفقهية، في مذهب محدد.

وغالب من فسره من العلماء المتقدمين لا يخرج تفسيره عن هذه الثلاثة المعاني.

ويتضح هنا أن النبي ﷺ أخبر بأن الله سيهيئ لهذا الدين من يجدده، ويعيده إلى ما كان عليه زمن الرسالة، وهذا يدل على أمرين:

الأول: أن التجديد يكون لأمر كان موجودا، ثم نُسي أو تقادم العهد به، أو تعرض للتغيير والتبديل، لسبب أو آخر.

الثاني: أن الحياة -ومنها الإنسان- بطبعه يستهلك الأشياء والنظم والأفكار والأساليب، ويتطلع دائما إلى أن يرى ويسمع أشياء لم يخبرها من قبل، ولذلك جاء في

---

(١) عون المعبود ٩/ ٣٢٦ وفيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي وقد أفاض في ذلك طويلا ١/ ١٤- وما بعدها.

الحديث الذي رواه الحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم، كما يخلق الثوب الخلق، فاسألوا الله أن يُجدِّد الإيمان في قلوبكم»[١]، فالمسلم مطالب باستمرار بتجديد إيمانه، بالرجوع إلى الله سبحانه، ليعود إيمانه على عهده السابق من القوة.

معنى تجديد الخطاب الديني:

إذا اتضح ما سبق وأن معنى التجديد في الدين مضبوط بكلام الله وكلام رسوله ﷺ، فما هو معنى تجديد الخطاب الديني؟

وهذا الموضوع يحتاج إلى تجلية وتوضيح لتداول كثير من الناس له، أو سماعهم لمن يطالب بالتجديد، ولا يستطيع استيضاح الحق في ذلك.

لكن لا بد قبل ذلك من العلم بأن الخطاب الديني يشتمل على أمرين:

الأول: يشتمل على علم، و عقيدة، و مضمون، وتعاليم شرعية.

الثاني: يشتمل على أسلوب وطريقة، يدعى الناس بها إلى هذا العلم والعقيدة والمضمون والتعاليم الشرعية، ويوضح لهم فيها ما استجد من أحكام وأفعال وفق شعائر الدين الحنيف[٢].

أما الأول وهو ما يشتمل عليه الخطاب الديني من عقيدة وعلم ومضمون وتعاليم شرعية فنعني به ما جاءت به الشريعة الإسلامية من أحكام، ولا نعني به

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ١/ ٨ وقال: رواته ثقات ووافقه الذهبي.

(٢) تسجيلة صوتية لمعالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

تطبيق الناس له مما يمكن أن نسميه دين الناس وعملهم وتطبيقهم لتلك العقيدة والعلم والأحكام الشرعية.

فثمة فرق بين الدين الصحيح وبين دين الناس، فإن الناس -مثلا- قد يكونون يؤدون الصلاة، والصلاة شعيرة عظيمة من شعائر هذا الدين، لكن قد يكون أداؤهم لها على غير الوجه الشرعي الكامل، فلا يجوز لنا أن نظن أننا نستطيع تجديد هذه العبادة بتغييرها عن الصفة التي وردت عن النبي ﷺ، أو يأتي من يطالب بإلغاء إحدى الصلوات الخمس لأن فيها مشقة على الناس، لكن نحن مطالبون بتجديد هذه الصلاة بتعليم الناس الصفة الشرعية التي وردت عن النبي ﷺ، وإعادة أدائهم لها على الوجه الذي كان يؤديها عليه النبي ﷺ، فالتجديد في ذات الصلاة هو من الزيادة في الدين، والأدلة متوافرة على منع الزيادة في دين الإسلام أو النقص منه، يقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ويقول الرسول ﷺ في حديث عائشة: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[1]، أما التجديد في الصلاة التي يؤديها الناس على غير وجهها الصحيح أو على غير صفة الكمال بإصلاح أداء الناس لها، فهذا هو ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء المصلحين الناصحين.

فتجديد الخطاب الديني حين يراد به كلام الله وكلام رسوله، في الأوامر والنواهي، والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعطاء الأحكام على الناس من مؤمن

---

(١) رواه البخاري (٢٤٩٩) ومسلم (٣٢٤٢).

وكافر ومنافق وفاسق، وغير ذلك، فهذه الأحكام لا يجوز تغييرها، لأن هذا يكون تحريفا لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، وهو من التحريف المذموم في كتاب الله سبحانه، فهو تنزيل من حكيم حميد، قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1].

لكن إذا أردنا بتجديد الخطاب الديني تطبيق الناس وأداءهم لتلك الأوامر والنواهي، فنعم، هم بحاجة إلى تجديد، يعادون فيه إلى الوجه الصحيح الذي جاء في الكتاب والسنة في كل تعاليم الإسلام، ويكون ذلك بتعليم الناس ودعوتهم، وهذا هو أحد المعاني التي ذكرناها في معنى تجديد الدين، وأنه إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما.

فإن كان المطالبون بتجديد الخطاب الديني يقصدون ذات الدين، كأن يأتي من يطالب بترك لفظ الحرام، أو عدم الحديث عن النار والعذاب، ومن يريد أن لا نمنع الناس عن الوقوع في المنكر من باب الحرية، أو من ينادي بالتساهل في التعامل مع الديانات الأخرى على اعتبارها دينا صحيحا، فكل هذه تخالف هذا الأمر مما يشتمل عليه الدين، ولا يمكن اعتبارها تجديدا له، بل هي طمس لشعائره وبعض أصوله.

أما الأمر الثاني الذي يشتمل عليه اسم الدين وهو أسلوب تبليغ هذا الدين من حيث الأولويات، وأنواع الفقه التي تراعى، وأسلوب مخاطبة الناس: مراعاة لمختلِف أفهامهم، فهذا لا شك يختلف باختلاف الزمان والمكان والعوائد والأحوال.

---

(١) سورة فصلت ٤٢، وانظر فيما سبق: فقه الواقع وتجديد الخطاب الديني للشيخ صالح الفوزان / ٩.

ومن أوضح الأدلة على ذلك أن الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه دعوتهم واحدة، هي الدعوة إلى توحيد الله جل و علا، وطاعة الرسل وملازمة التقوى والاستغفار، وأنواع العبادات، لكن أسلوبهم في تبليغ ذلك مختلف، لاختلاف الأزمان والأماكن والحالات، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]، ويقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلّات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**»[(١)]، ولذلك فإن عيسى ابن مريم ينزل في آخر الزمان، ويحكم بدين محمد ﷺ.

فهذا الأمر -وهو التجديد في أسلوب إبلاغ الدين الصحيح- جاء الشرع به، بل ورد الزجر لمن لم يراع في تبيينه لهذا الدين أفهام الناس ومراتبهم، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة[(٢)]، وقال علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله[(٣)].

ولذلك بوب البخاري في صحيحه بابا فقال: (باب من ترك بعض الاختيار،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٤/ ٢٠٣(٣٤٤٣).

(٢) رواه مسلم في صحيحه ١/ ٢١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه ١/ ٢١٧.

مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه)، وذكر فيه حديث عائشة ﵂ في قصة بناء الكعبة[١].

وذكر أيضا بابا آخر فقال: (باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا)، وذكر فيه أثر علي بن أبي طالب السابق، وقصة معاذ ﵁ لما بشره النبي ﷺ بدخول الجنة كل من قال لا إله إلا الله، فقال معاذ: أفلا أبشر الناس، قال: لا تبشرهم فيتكلوا[٢].

فالخطاب الديني ليس في حاجة إلى تجديد وإنما الذي يحتاج إلى التجديد هو الخطاب البشري -وفرق بين الخطاب الديني الصادر عن الله وعن رسوله وبين الخطاب الصادر عن البشر- فالخطاب البشري يجري عليه التعديل والتصويب على ضوء كلام الله وكلام رسوله ﷺ، لا على موجب كلام البشر واصطلاحاتهم، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، فأمر أن نقول للناس حسنا ليكون سببا في دخولهم في الإسلام[٣].

والمطالبة هنا بتجديد الخطاب الديني، الذي هو التجديد في دعوة الناس إلى هذا الدين، وتعليم الناس ما ينفعهم والاستفادة مما يستجد في الحياة؛ هي مما جاء الأمر به والدعوة إليه، وهو ما عليه عمل العلماء السابقين، وما يدعو إليه الناصحون.

---

(١) صحيح البخاري كتاب العلم ١/ ٣٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب العلم ١/ ٣٧.

(٣) فقه الواقع وتجديد الخطاب الديني / ١٥.

وبناء على ما سبق من بيان الأمرين الذين يشملهما الخطاب الديني؛ يتضح بجلاء أن الذي يقع عليه التجديد: هو علاقة الأمة بالدين، وتعاملها مع نصوصه، وليس الدين نفسه.

لأن هناك فرقا بين الدين وبين التدين، فالدين هو الشرع الذي بعث الله به رسوله محمدا ﷺ، وأنزل به كتابه، من عقيدة وأخلاق وعبادة وشرائع، وكلها أمور ثابتة، ليس للإنسان تغييرها، ولا تبديلها كما سبق.

وأما التدين فهو الحالة التي يكون عليها الناس في علاقتهم بدينهم، ولذلك يقال: فلان ضعيف الدين أو قويه، وهذا ما دل عليه الحديث السابق **«فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم»**، ولذلك قال ﷺ في الحديث الآخر **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»**[(١)]، فجعل التجديد لدين الأمة، وليس لأصل الدين، لأن الدين ثابت، لا يتغير ولا يحتاج إلى من يعدله، وإنما علاقة الأمة بدينها ومدى تمسكها به، هو الذي يحتاج إلى تجديد[(٢)].

صور من معالم تنوع الخطاب الديني عند النبي ﷺ:

ومما يؤكد ما ذكرناه من أن معنى التجديد في الخطاب الديني هو التجديد في أسلوب تبليغه ما ورد في سيرة النبي ﷺ من معالم يظهر فيها تنويعه ﷺ لأسلوب تبليغه لهذا الدين، مما يدل على أن المسلم مطالب بالاقتداء في فعله بالنبي ﷺ في تنويعه للخطاب الصادر منه حسب الناس وحسب الزمان، وسأكتفي بذكر نماذج منها:

---

(١) سبق تخريجهما ص: ١٥، ١٨.

(٢) انظر التجديد في الفكر الإسلامي د. عدنان محمد أمامة / ٦٦.

مراعاة أحوال المدعوين وما لديهم من دين سابق:

من الصور الظاهرة في تنويعه ﷺ لأسلوبه في الخطاب الموجه للمدعوين: عدم بقائه على منهج وأسلوب واحد في مخاطبته لمن يريد دعوتهم، بل يدعو كل شخص مراعيا ما لديه من علم سابق أو دين سابق، ومن أوضح الأمثلة النبوية على ذلك: قصة بعثه ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن معاذا قال: بعثني رسول الله ﷺ فقال: «**إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات، في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»[1].

فقد أرشده النبي ﷺ إلى أنه سيأتي قوما أهل كتاب، يعني أهل دين سابق، فينبغي مراعاة أحوالهم، وأن تكون دعوتهم وفق طريقة معينة، تختلف عن الطريقة المعتادة في دعوة المشرك الذي لا دين له، كل ذلك مراعاة منه ﷺ لأحوال الناس.

مراعاة المخاطبين في القيام ببعض الشعائر:

إضافة إلى ما سبق فإن النبي ﷺ كان يستعمل الطريقة المناسبة في تطبيق بعض الشعائر، مراعاة لأحوال المدعوين، خاصة إذا كان القيام بها قد يصدهم عن مقصده ﷺ من دعوتهم، ومن أظهر الأمثلة على ذلك: قصة بناء الكعبة فقد روى البخاري

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في عدة مواضع: (١٣٠٨) ومسلم ١/ ١١١، وهذا لفظه.

رحمه الله وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت، ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام، فإن قريشا استقصرت بناءه، وجعلت له خلفا**»[1]، فالنبي ﷺ راعى أحوال الناس، لاحتمال عدم استيعابهم لهدم الكعبة، وتغيير هيئتها التي تعودوا عليها، وتركها على ما كانت عليه.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في قصة وفد ثقيف فيما رواه أبو داود بسند صحيح عن أبي الزبير قال: سألت جابرا عن شأن ثقيف إذ بايعت؟ فقال: اشترطت على رسول الله ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد ثم قال جابر أن رسول الله ﷺ قال: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا، يعني ثقيفا[2]، وقد كان تعامل النبي ﷺ مع ثقيف هذا التعامل سببا في قول المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: فدخلوا -يعني ثقيفا- في الإسلام فلا أعلم قوما من العرب بني أب ولا قبيلة كانوا أصح إسلاما ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم[3].

مخاطبة الناس وإيصال تعاليم الدين إليهم بلغاتهم:

ومن بديع تنويعه في خطابه الدعوي ﷺ أنه كان يحدث كل قوم بلغتهم التي يفهمونها، فلم يقتصر على لغة أو لفظ واحد، وذلك ليقرّب مفهوم الحديث ومعناه الذي يريد إيصاله إليهم، ومن الأمثلة على ذلك: ما رواه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مسنده من حديث عاصم الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ١٤٨٢.

(٢) رواه أبو داود في سننه ٢/ ٤٢، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٨٨).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣١٣-٣١٤..

«ليس من أمبر أمصيام في أمسفر»[١]، وهذا الكلام في لغة الأشعريين، حيث يقلبون اللام من أل التعريف ميماً، والمراد بذلك أصل الرواية، وهي قول النبي ﷺ: «ليس من البِرّ الصيامُ في السفر»[٢].

استخدام الوسائل التعليمية في توضيح بعض الأمور للناس:

كان النبيّ ﷺ يحرص على بيان أمور هذا الدين الحنيف، وتوضيحها للناس بشتى الطرق؛ لذا استخدم الرسول عليه الصلاة والسلام وسائل تعليمية إيضاحية، كضرب الأمثلة، واستخدام يده أو عصاه ليخطّ بها خطوطاً على الأرض، لتوضيح معنىً، أو مفهوم معيّن؛ مثل ما روى البخاري وغيره من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطّ النبيّ ﷺ خطاً مربعاً، وخطّ خطاً في الوسط خارجاً منه، وخطّ خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه، وقال: «**هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به -أو قد أحاط به- وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض؛ فإنْ أخطأه هذا نهشه هذا، وإنْ أخطأه هذا نهشه هذا**»[٣]، ووردت أحاديث أخرى استخدم النبي ﷺ فيها العصا، وغير ذلك.

أهمية تنويع الخطاب الديني:

وبغض النظر عن مطالبة هاتين الجهتين -اللتين سبق الإشارة إليهما- ومدى مصداقية ما يطالبان به، إلا أنه ينبغي الإقرار بأن الخطاب الديني يمثل صورة لحال العالم الإسلامي؛

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٥٦٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه ١٨١٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه ٥٩٣٨.

فبقدر ما تتطوّر المجتمعات الإسلامية وتتغيّر نحو الأحسن والأفضل والأرقى، بالتغلّب على الجهل بالشريعة، والتقاتل، والتحزب غير الشرعي، وبقضائها على مظاهر البعد عن الله، والوصول إلى الاعتدال في الأمور وفق ما جاءت به الشريعة، يتجدَّد الخطاب الديني ويتنوع، ويرتقي إلى المستوى الذي يجعله مطابقا للمتغيّرات، مستجيباً للطموحات، ومنسجماً مع هوية الأمة، ومعبّراً عن خصوصياتها، ومدافعاً عن مصالحها.

ولذلك ينبغي أن يكون الإنسان ساعيا إلى تنويع خطابه الديني بالمفهوم الصحيح الوارد في الكتاب والسنة، والذي جاء تأكيد السلف وعملهم عليه.

معالم تنويع الخطاب الديني المطلوب بوجه عام:

بعد ما سبق من تحديد لمفهوم مخاطبة الناس، ومعنى التجديد فيها، فيمكن رسم المجالات والأهداف التي ينبغي السعي لتجديد الخطاب الديني من خلالها، في الأمور التالية:

١. أن يعود كسابق عهده، على مستوى التمسك بالأصول، والالتزام بالضوابط المنهجية المتفق عليها، والحفاظ على نصوص الدين الأصلية، صحيحة نقية.

٢. تأسيسه على أساس العقيدة الصحيحة الصافية التي كان عليها، والإخلاص لله تعالى في جميع الأمور، ونبذ ما يخالف ذلك، وتصحيح الانحرافات التي أحدثها الناس في تطبيقهم للدين الصحيح، سواء في جانب الشبهات أو جانب الشهوات، وحماية الدين والدفاع عنه.

٣. تصحيح الأفكار والمفاهيم، وأوجه البرهنة والاستدلال التي نستخدمها في إيصال تعاليم الدين للناس، على مختلف طبقاتهم وفئاتهم ومستوياتهم، وملامسة حاجات الناس، والعمل على تبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم في ظل تطورات الزمن وتغيراته.

٤. الاجتهاد في الأمور المستجدة، وإيجاد الحلول الشرعية لها، للدلالة على شمول الإسلام لجميع حاجات الناس واحتياجاتهم.

٥. استخدام الأساليب الممكنة والملائمة لذائقة الناس المتجددة يوما بعد يوما، ومواكبتها بما يستجد من وسائل[١].

معالم تجديد الخطاب الديني المطلوب عند الداعية والخطيب:

ويمكن الحديث عن مجال من المجالات التي يمكن تنويع الخطاب الديني عن طريقها، وهو تجديد الخطاب الديني لدى الداعية وخطيب الجمعة، وذلك بما يتفق مع ما سبق توضيحه في معنى التجديد.

وتظهر مجالات التجديد لدى الخطيب والداعية في الأمور التالية:

١. الحفاظ على الأصول الشرعية من الخطيب والداعية، والحرص على ذلك في قوله وفعله.

٢. مراعاة اتساع مدارك الناس وأفهامهم، من المدعوين، أو من المصلين، ومعرفتهم بالمصطلحات والألفاظ، فالناس اليوم ليسوا كالأمس، فانتشار وسائل الاتصال بينهم، تحث الداعية والخطيب على الرقي بمستوى تعامله مع الناس فيما يستخدمه من ألفاظ، والقدوة في ذلك نبينا محمد ﷺ، وما سبق في قصة معاذ حين

---

(١) انظر: التجديد في الفكر الإسلامي ٣٧-٤١، وكذلك الدكتور عبدالعزيز التويجري في رسالته الخطاب الإسلامي بين الأصالة والمعاصرة -مقومات الخطاب الإسلامي وخصائصه.

بعثه إلى اليمن، وكيف كان يخاطب كل قوم على حسب فهمهم كقصة هدم الكعبة وما ذكره ﷺ لعائشة رضي الله عنها، وما ورد في الأثر من إنزال الناس منازلهم.

الداعي إلى الله يعرض دعوته على نحو يوائم طبائع الناس، وباللغة التي يفهمونها، على لسان رجل منهم، يخاطبهم بما يلامس أفئدتهم ويوافق أغراضهم لتحقيق الغاية من وجودهم وهو عبادة الله على الوجه الصحيح، يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤].

٣. طرح ما يحتاجه الناس من مواضيع، تهمهم في أمر دينهم ودنياهم، اقتداء بالنبي ﷺ، فقد كان يحرص على معالجة ما يحتاجه الناس في أمور حياتهم، وما يستجد بهم من نوازل، ولو تتبعنا عدد صعوده ﷺ المنبر في غير خطبة الجمعة لوجدنا من ذلك عجبا.

٤. مخاطبة الناس بما يفهمون، وتدركه عقولهم، سواء في الأقوال أو الأفعال، وسبق قول علي وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما حول ذلك، وكذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو أن محمد بن الحسن كان يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا عنه، ولكنه كان يكلمنا على قدر عقولنا فنفهمه[1].

لذلك على الداعي إلى الله عند مخاطبته الناس أن يطبق قول مطرف بن عبد الله بن الشخير رحمه الله: (عقول الناس على قدر زمانهم)[2]، فما يخاطب به الناس اليوم ليس كمثل ما يخاطب به السابقون.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/ ٥٥٠.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ١٨٩، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده ٢/ ٢٠٣.

وهذا الأمر وهو مخاطبة الناس على قدر عقولهم مما تكلم عنه العلماء بإسهاب وبخاصة بين الشيخ والتلميذ، والداعي إلى الله مع المدعوين كالشيخ مع تلاميذه، ولذلك روي عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أن تلميذه المروذي سأله عن شيء من أمر العدل فقال: لا تسأل عن هذا فإنك لا تدركه، وقال ابن الجوزي: ولا ينبغي أن يملي ما لا يحتمله عقول العوام[١].

وأعجب من ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن قزعة قال أتيت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه وهو مكثور عليه -أي عنده ناس كثيرون- فلما تفرق الناس عنه، قلت: أسألك عن صلاة رسول الله ﷺ، فقال: ما لك في ذلك من خير، فأعاد عليه فأجابه أبو سعيد وذكر الحديث[٢]، قال النووي في شرح مسلم قوله: (مالك في ذلك من خير) معناه أنك لا تستطيع الإتيان بمثلها لطولها وكمال خشوعها، وان تكلفت ذلك شق عليك ولم تحصله، فتكون قد علمت السنة وتركتها[٣].

ومن أوضح الأمثلة على ذلك في وقتنا الحاضر: الحديث عن الجهاد وحث الناس عليه مع عدم مناسبة ذلك، إما لأن من أمامه لا يقدرون على ذلك، أو أن الجهاد المنادى به ليس جهادا شرعيا، فماذا سيفعل من يستمع مثل هذا الكلام؟ دون أن يحدد الداعية للناس الطريق الشرعي في ذلك.

---

(١) عقد ابن مفلح في كتابه الآداب الشرعية والمنح المرعية فصلا عن مخاطبة الناس على قدر عقولهم، فيه هذه الأقوال وغيرها ٢/ ١٤٩-١٥١.

(٢) صحيح الإمام مسلم باب القراءة في الظهر والعصر (٤٥٤) ١/ ٢٣٥.

(٣) شرح النووي على صحيح الإمام مسلم ٤/ ١٧٦.

سيكون نتيجته أحد أمرين:

أ- إما أن الناس سيخرجون من المكان وهم يستصغرون المتحدث، لأنه تكلم عن أمور لا يستطيعونها، ويكون نتيجة ذلك استصغارهم لعقله، ووصف كلامه بالمبالغة والدجل، ثم يسيِّرون هذا الحكم عليه في جميع ما يقول مستقبلا.

ب- أو أنهم سيطبقون ما يسمعون منه حسب فهمهم، فترى من يجاهد أهل بلده، ويقتل كل من رآه أمامه، لتأثره بخطبة بليغة، أو موعظة وصفت أحوال المسلمين وصفا مبكيا، على وجه مخالف لهدي النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، والنتائج في ذلك معروفة مشاهدة.

ولذلك جاء في قصة خباب بن الأرت رضي الله عنه حيث يقول: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[1].

فلم يأمره بالقتال مع وجود الحاجة الظاهرة أمام خباب، بل أمره بالصبر، فكذلك الحال بالخطيب أو الداعية في مثل تلك الأمور، عليه أن يحث الناس على

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٤/ ٢٠١.

الصبر، ويأمرهم بالدعاء، كما حث النبي ﷺ خبابا، مع أن خبابا كان يذوق الأذية هو ومن معه، ولم يكن يسمع بها فقط، ومع ذلك أمره بالصبر، وبين له حال المؤمنين من الأمم السابقة، وما يعانونه في دينهم.

٥. الاستفادة من وسائل الإعلام:

كان الداعية في السابق محصورا في درسه أو موعظته بوقت محدد، لا يستطيع تغييره، ومحدودا بمكان محدد، في المسجد مثلا، لا يمكن أن يدخل على الناس في بيوتهم ليعلمهم أو يعظهم، لكن اليوم الوضع اختلف.

وسائل الإعلام الموجودة اليوم أزالت حاجزين، حاجز عن الداعية، فصار عن طريق وسائل الإعلام يصل إلى من لم يصل إليهم من قبل، لا وقت لحديثه أو موعظته، متى ما أذيعت أو نشرت استمعها الناس أو شاهدوها.

وزال حاجز آخر مهم وهو حاجز المدعوين: فإن فئاما من الناس قد لا يحضرون مجالس العلم إما لعدم قدرتهم أو لصعوبة ذلك عليهم لفارق سن، أو مكانة، أو لأي سبب آخر، لكن يستمعون إلى ما عند الداعية أو الواعظ، عن طريق وسائل الإعلام، مع زوال عوائقهم السابقة، وهذا في الحقيقة نعمة من الله، تتفتح للداعية مع هذه الوسائل.

مع أن وسائل الإعلام يحتاج المرء في تعامله معها إلى عدة ضوابط نذكرها مع المعلم القادم من معالم تنويع الخطاب لدى الداعية والخطيب وهو:

٦. التواصل مع الناس بما يحسنونه وما يستجد من أمور حياتهم من تقنيات:

إن من الأصول الثابتة لدى الداعية قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤]، وهو أن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل عليهم الكتب، وما بعث الله من رسول إلا بلسان قومه، وما أنزل من كتاب إلا بلغتهم، وهكذا الداعية يراعي ذلك في دعوته.

وليس المقصود باللسان واللغة هنا معناهما المجرد، بل أوسع من ذلك، وكما قيل بأن لكل زمن لغته، فالحياة لا تستقر على نمط واحد، فكل سنة يخرج للناس من التقنيات والوسائل ما ينسي ما قبله، والداعية إلى الله مطالب بأن تتجدد دعوته للناس بحسب ذلك، ما دام لا يعترض مع شرع الله تعالى.

الداعي إلى الله تعالى مطالب بالاستفادة من التقنية الحديثة واستغلالها الأمثل في إيصال رسالة الإسلام إلى الناس جميعا، فهذا أمر مهم للغاية ويجب الحرص عليه غاية الحرص.

فإذا كان كل نبي من الأنبياء عليهم السلام قد طُلب منه أن يخاطب قومه بلسانهم، فإن المسلمين اليوم مطالبون بأن يخاطبوا الناس بلسانهم ولغة عصرهم، ولسان القوم، ولغة العصر اليوم هي: المعلوماتية والتقنيات الحديثة.

ومن البدائع المستنبطة من قصة نبي الله سليمان عليه السلام التي وردت في سورة النمل أنه استخدم في دعوته وسائل لم يستطع البشر حتى وقتنا الحاضر الوصول إليها، وهي الدعوة إلى الله بلسان الحيوان والجن، ولن يستطيع الناس ذلك، مصداقا لوعد الله له أن يؤتيه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وهذا يدل على أن ثمة أمورا ستستجد في أساليب التواصل أكثر مما نراه اليوم.

ضوابط استخدام التقنيات الحديثة في الدعوة:

كانت الدعوة في أول أمرها تقتصر على اللسان، كما كانت في عهد النبي ﷺ، ولما انتشرت الكتابة صار العلماء والدعاة يكتبون الكتب، وينسخونها، يدعون إلى الله بهذه الوسيلة، إلى أن جاءت المطابع فجعلت الكتابة أو المجلة أو الصحيفة من أكثر أدوات الدعوة انتشاراً وتأثيراً.

ثم تطورت الحياة فانتشرت أجهزة الحاسب الآلي فبدأت الدعوة إلى الله عبرها تسلك مسلكا أكثر توسعا وصدى من الكتابة واللسان، فوصل كتاب الله تعالى، وأحاديث النبي ﷺ، وشروحها والفقه، والسيرة، والتاريخ الإسلامي، وغير ذلك في أرجاء الدنيا، لا يستطيع أحد منعه أو الوقوف في طريقه، زاد ذلك لما ظهرت شبكة المعلومات الدولية -الانترنت- هذه الوسيلة التي أبهرت العالم وجمعت القاصي والداني، فأصبحت تلك الشبكة وسيلة الاتصال الأولى، ومركزا لتبادل المعلومات، وتوصيلها بأقصى سرعة ممكنة.

فلذلك صار من أهم أولويات التعامل مع التقنيات الحديثة كيفية توظيفها، وحسن استغلالها في الدعوة إلى الله، وإبراز الصورة الحقة لهذا الدين الإسلامي، ولا سيما في هذا العصر الذي شوهت فيه صورة الإسلام وأهله.

وسائل المعلومات أصبحت تصوغ عقول الناس وحياتهم وأفكارهم في كل مكان؛ لذلك أصبح لزاما أن تكون مما يهتم به الدعاة إلى الله عزَّ وجلَّ، أنهم إذا لم يهتموا بها اهتم بها غيرهم بطريقة غير صحيحة، فربما كان ضررها أكثر من نفعها.

وسائل المعلومات اليوم اختصرت كثيرا من وسائل الدعوة إلى الله التي كان عليها العمل، فاستطاع الداعية والعالم أن يوصل علمه ودعوته إلى أي مكان في الدنيا وهو في بلده، بل وهو في جوف بيته.

اختصرت وسائل المعلومات والتقنية الحديثة على طالب العلم الرحلة في طلب العلم، فلما صارت الرحلة اليوم صعبة على كثير من الناس، بسبب ما جد في الحياة من أنظمة للتنقل بين الدول جاءت التقنية الحديثة لتيسر لطالب العلم التعلم من أي شيخ يرغب التعلم على يديه عن طريق هذه الوسائل، لكن ذلك لا يغني عن الذهاب إلى العلماء، يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

هذه التقنيات مطلب مهم للداعية اليوم، لكنها محفوفة بمحاذير كثيرة يمكن توقيها بأمور:

أ- أهمية القوة العلمية مع القوة التقنية للداعية مستخدم هذه الوسيلة، لأن المخاطبة مفتوحة مع جميع الناس فتحتاج إلى قوة علمية، وإذا لم يكن الشخص عالما بهذه التقنيات قد لا يسلم كلامه من تحريف أو تغيير فيحتاج إلى قوة تقنية.

ب- التهيؤ والاستعداد في لغة الداعية ولفظه، فحينما يتحدث الداعية إلى أناس أمامه محدودين بمكان أو منطقة أو بلد ليس بمثل حديثه الذي يسمعه الناس كلهم، على اختلاف لغاتهم وعاداتهم، ومشاربهم، بل حتى دلالات ألفاظهم، وهذا مما يغفل عنه بعض من طلبة العلم.

جـ- أن يقف الداعي إلى الله وكذلك طالب العلم عند ما يتقنه، ولا يستجره الشيطان وتهافت الناس عليه على أن يلج فيما لا يعرفه، فالداعي إلى الله وطالب

العلم محتاج عند استخدامه لهذه التقنيات لكبح النفس عما لا تستطيعه، وهذه تجدها كثيرة عندما تتصفح مواقع المعلومات التي يفتحها بعض طلبة العلم والدعاة بأسمائهم، تجد فيها كل شيء، من تفسير وحديث وفقه وفتوى وإصلاح وغير ذلك، فهل كل تلك الأمور يتقنها صاحب الموقع؟

الواقع أن بعضهم قد يرى تهافت الناس وكثرة استفسارهم فيفتح لكل مطلب مدخلا، وكأنه يعلم كل شيء، وهذا مدخل للشيطان على طالب العلم، ومزلق من مزالق قول الإنسان على الله غير الحق.

السابقون من العلماء والدعاة يقرون بأنهم لا يتقنون كل شيء، ولذلك لو استعرضت كتب التراجم لوجدت كل عالم متخصص ﷺ فيما يتقنه من العلم، فأحيانا ما يقول الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ عند ترجمته لشخص: كان ورعاً زاهداً حافظاً، بصيراً بعلل الحديث ورجاله، لا علم له بالفقه[1]، ونحو هذه العبارات.

بل النبي ﷺ قسم أصحابه على حسب ما يعرفه كل شخص فقال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**»[2].

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي في ترجمة سعيد التجيبي من أعيان سنة ٣٠١ - ٣١٠ هـ ص ١٥٩.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٢٨١) والترمذي (٥/ ٦٦٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٢٤).

ومثل ذلك ما ذكره ابن عبد البر عن الإمام مالك رحمهما الله: وذلك أن عبد الله بن عبد العزيز العمري العابد كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعمل، ويرغب به عن الاجتماع إليه في العلم، فكتب إليه مالك: إن الله عز وجل قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة، ولم يفتح له في الصيام، وآخر فتح له في الجهاد، ولم يفتح له في الصلاة، ونشر العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير، ويجب على كل واحد منا أن يرضى بما قسم له، والسلام. أ.هـ[1].

فالله عز وجل قسم المواهب أيضا بين الناس، فليس شرطا أن الداعية يتقن كل شيء، لكن المشكلة حين يجعل نفسه متقنا لكل شيء، وأكثر ما يُورِدُ ذلك على طالب العلم وعلى الداعية التعاملُ مع وسائل التقنية الحديثة.

والكلام هنا يقال أيضا في التعامل مع وسائل الإعلام بشتى أنواعها، والحديث عن هذا المطلب عند الداعية وطالب العلم محتاج لبسط، ليس هذا موضعه.

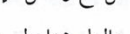

(١) ذكره ابن عبدالبر في التمهيد (٧/ ١٨٥) ثم قال بعده: هذا معنى كلام مالك لأني كتبته من حفظي وسقط عني في حين كتابتي أصلي منه.

دعاوى الخصوم حيال الخطاب الديني

من الصعب جدا الإلمام بجميع ما وجّه إلى الخطاب الديني من تهم أو انتقادات أو غير ذلك، وصبغت بصبغة الدعوة إلى تجديد الخطاب الديني، إلا أنه يمكن أن نشير إلى بعض الشبه بشكل موجز، ثم الحديث عن أسباب ورود مثل هذه التهم، لأن معرفة الأسباب الذي أدت إلى تلك التهم يسهِّل علاجها والرد عليها.

ويمكن تقسيم ما ألحق بالخطاب الديني من تهم أو انتقادات على حسب نوعها إلى ثلاثة أنواع[1]:

النوع الأول: في ميدان العقيدة:

١. تقديس العقل وتقديمه على النقل.

٢. إنكار الغيبيات أو تأويلها.

٣. تذويب الحاجز بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، عبر عدة طرق منها: الدعوة إلى وحدة الأديان، أو صحة الأديان الأخرى المغيرة أو المنسوخة، غير دين الإسلام، أو عدم التفريق بين الناس بسبب أديانهم.

٤. التساهل مع الفرق المنحرفة عن العقيدة الصحيحة والسعي للتوحد معها.

٥. المطالبة بإلغاء الحديث عن بعض الأمور التي يزعمون أن فيها قسوة، كالتحريم والمنكر، والبدعة، والنار، والعذاب، وأهوال يوم القيامة.

---

(١) انظر هذه التهم منسوبة بإسهاب إلى قائليها في عدد من الكتب، منها: التجديد في الفكر الإسلامي د. عدنان محمد أمامة، السلفية وقضايا العصر د. عبدالرحمن بن زيد الزنيدي، وإسلامية لا وهابية د.ناصر بن عبد الكريم العقل، وغيرهم.

النوع الثاني: في ميدان السنة:

١. الطعن في المحدثين والفقهاء واتهامهم بالوضع والكذب والاهتمام بالسند دون المتن.

٢. معارضة كثير من أدلة السنة بالعقل، وعدم قبولها لمعارضتها عقولهم.

٣. رفض بعض الأحاديث النبوية لعدم ملائمتها الزمن أو لتقسيمهم السنة إلى تشريعية وغير تشريعية.

النوع الثالث: في ميدان الفقه وأصوله:

١. تقديم المصلحة على النص من الكتاب والسنة، بحجة أن النص لا يمكن تطبيقه على جميع الناس، وتضخيم دور المصالح والعلل والحكم التي انطوت عليها أحكام الشريعة ليصل في النهاية إلى أن الأحكام تتبدل وتتغير بتغير هذه المصالح، فتعطل بعد ذلك النصوص الشرعية المحكمة.

٢. اتهام الفقه والفقهاء بالجمود وبعدهم عن حياة الناس ومعايشته حاجاتهم.

٣. التساهل في بعض الأحكام الفقهية مراعاة لحياة الناس، وعدم الإنكار عليهم فيها.

٤. إسقاط بعض التعاليم الشرعية التي يصفونها بالقسوة مثل الدعوة لإسقاط الحدود الشرعية واستبدالها بعقوبة الحبس، بحجة ما في إقامة الحدود من القسوة ومخالفة حقوق الإنسان.

٥. اتهامهم نظام الحكم في الإسلام بالقصور، وتضخيمهم لمبدأ الديمقراطية، وأنها أصلح منه، فنتج عن ذلك: تجويزهم الخروج على الحكام، ولو لم يظهر منهم

كفر، وتسويتهم بين المسلم وغيره في الحقوق والواجبات، وإبطالهم كثيرا من أحكام الجهاد، كالجزية وقتل المرتد ونحو ذلك.

٦. دعوتهم إلى عدم مناسبة بعض الشعائر الإسلامية للوقت الحاضر: كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونها كبت للحريات، أو ادعاء ظلم الإسلام للمرأة والدعوة إلى مماثلتها للرجل في جميع الأمور.

هذا مجمل لما نسب إلى الخطاب الديني في السابق واليوم، فالدعاوى واحدة وإن اختلفت العبارات أو الهدف منها.

الأسباب الداعية لذلك:

ما ذكرناه من تهم وشبه أوردت على الخطاب الديني تعددت مشارب القائلين بها، وتعددت دياناتهم، وليس مجالنا هنا للرد على كل شبهة أو وصمة اتهم بها الخطاب الديني زورا وبهتانا، لكن الأولى أن نقف على الأسباب التي أوجدت مثل تلك الشبه، فموردوا تلك الشبه وإن تعددت مشاربهم إلا أنهم يجتمعون في الأسباب التي قادت لتلك المفاهيم المغلوطة عن الخطاب الديني.

وقد استوقفني عند البحث عن الأحاديث التي جاءت بالدعوة إلى التجديد: حديث عن النبي ﷺ، أرى أنه يجمع غالب الأسباب التي أدت إلى هذا الانحراف، مع أن الحديث يتحدث عن التجديد في الدين، وكيف يكون.

عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يحمل

هذا العلم من كل خَلَف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين»[١].

وإن كان بعض أهل العلم قد أعلوا هذا الحديث بكون حمل الدين ليس مقصورا على العدول، فقد يكونوا فساقا ـ كما وقع ـ، وإن كانت العبرة بالغالب لا بالنادر فحملة العلم غالبهم عدول.

لكن جاء في إحدى روايات الحديث بصيغة الأمر: «ليحملْ هذا العلم» فتزول تلك العلة، وتؤكد الاستدلال بهذا الحديث على المعنى الذي قصدناه هنا.

فهذا الحديث مع أنه يتحدث عن منة الله على هذا الدين بأن هناك من سيحمله، فيدافع عنه ويزيل ما يلحق به، ولذلك يعد هذا الحديث من الأحاديث الدالة على التجديد في الدين -التي مر ذكر بعضها- إلا أن فيه معنى آخر: وهو أنه ﷺ حدد فيه أوجه الانحراف الواردة على الدين الصحيح في ثلاثة أسباب، أرى أن كل ما ذكر من تهم موجهة إلى الخطاب الديني مما سبق ذكره وغيره، لا تخرج عن أحد هذه الثلاثة الأسباب المذكورة في الحديث، وهي:

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٩ ورواه غيره، وتكلم بعض أهل العلم على إسناده، وصححه محتجا به جمع: منهم ابن عبد البر في التمهيد (١/ ٥٨) وابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ١٦٣)، وابن الوزير في العواصم من القواصم ١/ ٣٠٨، وكذلك ابن مفلح في الآداب الشرعية ونقل كلام الإمام أحمد عنه (٢/ ١٢٥)، وتوقف الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٢٤٨ في تضعيفه، وقد ألف الزبيدي رسالة في تصحيحه وألف من المتأخرين سليم الهلالي رسالة مسهبة في تصحيحه.

السبب الأول: تأويل الجاهلين:

وهو أن غالب ما أتى إلى الدين الإسلامي الصحيح فهو بسبب الجهل بهذا الدين وعظمته.

والجهل بالشريعة يشمل أربعة أمور:

١. الجهل بمصادر الشريعة: فالجهل بالقرآن الكريم وأنه كلام الله تعالى محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والجهل بسنة النبي ﷺ الصحيحة، يقود إلى الدعوة إلى تقديم العقل على النص، أو إلغاء بعض ما ورد في الشريعة من أحكام، أو الاعتماد على أحاديث ضعيفة في الزيادة في الدين، وهكذا الأدلة الأخرى التي اعتبرها العلماء كالإجماع والقياس.

٢. الجهل بقدرة هذه الشريعة، وكمالها وشمولها وإحاطتها بجميع النوازل: قاد إلى اعتقاد حاجة الدين الإسلامي إلى مواكبة المستجدات، أو أنه لا يناسب هذه العصور المتأخرة، وغاب عنهم مثل قول الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وغيرهما من الآيات والأحاديث.

٣. الجهل بوسيلة فهم النصوص الشرعية، وكيفية استنباط الأحكام منها، فأدى ذلك إلى تحريف الكلم عن مواضعه، وإلى أن تضرب الأدلة بعضها ببعض، أو تفهم على غير مرادها.

٤. الجهل في عدم التفريق بين فعل المنتسبين إلى الإسلام، وبين أن يكون ذلك الفعل هو الإسلام، وإن كان هذا النوع من الجهل داخلا في الأنواع السابقة، إلا أنه مهم، وذلك أن غالب من اتهم الإسلام بتهم التشدد والغلو والقسوة أو الإرهاب

إنما حكم على فعل بعض أفراد المسلمين، في حين أن الإسلام بريئ من تلك الأفعال، فأفعال المسلمين ليست دليلا كافيا في الحكم على تعاليم الدين أو مناقشتها.

إذا تبين هذا، فإن الجهل علاجه العلم، فلا بد من إظهار الدين الصحيح الذي جاء به محمد ﷺ، ليتعلم الجاهل، ولتزول الغشاوة عن كثير من الشبه والتهم الموجهة إلى الدين الإسلامي، ويظهر وجه الحق في ذلك.

والمتأمل في التاريخ وما مر به المسلمون من فترات ضعف وقوة، يجد أن تلك الشبه وما ماثلها تأتي في وقت انشغال المسلمين عن تصحيح دينهم وتعلقهم بأمور الحياة الدنيا التي تزيد من بعدهم عن ربهم سبحانه وتعالى، وبقدر قوة تمسكهم بهذا الدين وتعلمهم وتعليمهم له تجد ضعفا لتلك الشبه وضعفا في قبولها.

السبب الثاني: انتحال المبطلين:

المبطل من أبطل إذا جاء بالباطل، والانتحال: هو الادعاء[1]، ومعنى ذلك أن مما يكون سببا داعيا للتجديد: هو ما يدعيه المبطلون، وهم أهل الضلال في هذا الدين.

ولذلك، فإن غالب ما يورد على الدين من تهم يكون مصدره من أعدائه الذين يريدون الإضرار به، ويقلدهم في ذلك بعض من لم يتنور بنور هذا الدين، أو رغب في تقليد غير المسلمين في جميع الأمور.

وقد يكون معرفة هذا السبب موضحاً في رد كثير من الشبه التي تثار حول الخطاب الديني، وأن مقصد من يثيرها الرغبة في الإضرار بهذا الدين، أو تقليد سبل أهل الديانات الأخرى.

---

(١) انظر المخصص لابن سيده، ومادة نحل في لسان العرب ١١/ ٦٤٩.

إذا تبين ذلك، فإن الباطل لا بد أن يدحض بالحق ويظهر زيفه، ويؤكد للناس عامة ما يحمله المبطل من أغراض فاسدة وقول كاذب.

الباطل يحتاج إلى مجاهدة وصبر ومغالبة، لأن صاحبه غالبا ما يقاتل ويجالد من أجل باطله، ولا يمكن للمسلم أن يمضي حياته في مغالبة أهل الباطل، لأن زوال الباطل يحصل إذا علا صوت الحق، ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، وهذه فائدة مهمة، وهو أن الإنسان ينبغي له أن ينشغل في بيان الحق والدين الصحيح للناس، ولا يشغل نفسه بدحض الباطل، لأن الحق إذا جاء زال الباطل، كما هي سنة الله في الحياة، فالكأس إذا كان فيه نجاسة، ثم زدته ماء حتى كثر الماء، زالت النجاسة، وصار الكأس مملوءة ماء، فكذلك المدافعة بين الحق والباطل.

السبب الثالث: تحريف الغالين:

الغلو هو مجاوزة الحد، وهو أنواع: فمنه غلو في الفعل، أو غلو في الترك، ومنه غلو في الأعمال وتارة في الأشخاص، وتارة في الآراء.

فغلو بعض المسلمين في الدين كمثل تنزيلهم أحكام الجهاد على من شاؤوا قاد إلى اتهام الدين بالعنف والدعوة إلى إغلاق باب الجهاد، وصور الغلو في الدين التي أدت إلى الإضرار بالدين كله كثيرة.

وغلو بعض المسلمين في تساهلهم بأحكام الدين، وانحلال أخلاقهم، قاد إلى ظهور الدين الإسلامي دين انحلال وتفسخ، وأوجد من أبناء المسلمين من يحارب الدين الذي ينتسب إليه.

ويعالج الغلو بإعادة الناس إلى جادة الاعتدال، والمنهج الذي كان عليه النبي ﷺ في اعتداله في أموره كلها، والسير على منهاج السلف الأول من الأمة، في معالجتهم للأمور، والرجوع إلى أهل العلم المتبصرين فيه، وتنشئة الجيل المسلم على ذلك، كي لا يكونوا صورة مشوهة للإسلام، فيكونوا حربا على دينهم، بدل أن يكونوا دعاة إليه.

هذه في نظري هي الأسباب التي قادت إلى اتهام الخطاب الديني؛ بل الدين كله بما نسب إليه من تهم أو نقص، أرشد إليها هذا الحديث الموجز عن النبي ﷺ.

ومعرفة هذه الأسباب يسهل على الراغب الدفاع عن الدين طريقة ذلك، لظهور السبب الذي صدرت بموجبه الدعوات إلى تجديد الخطاب الديني.

واقع الخطاب الديني في المملكة العربية السعودية

التمييز بين الخطاب الديني الذي يصدر من الدولة ومؤسساتها والمنتسبين إلى تلك المؤسسات، وبين الخطاب الفردي الذي يصدر من أفراد المجتمع، مهم جدا، لأن ما يصدر من أفراد الناس، حتى وغن كانوا منتسبين للعلم الشرعي، لا ينبغي أن ينسب إلى الدولة، أو مؤسساتها.

وقد سبق أن فرقنا بين الدين وبين التدين، وأن ما يكون في تدين الناس من قصور فلا ينسب إلى الدين الإسلامي، فكذلك هنا.

والمملكة العربية السعودية تمثل منبرا من منابر الإسلام في الوقت الحاضر، والعالم كله مرتبط بها، لانطلاق الإسلام منها، لاحتضانها مكة المكرمة والمدينة المنورة، ورعايتها الحرمين الشريفين، وهي لم تسلم من النقد لخطابها الديني، بل لعل كثيرا من التهم إنما وجهت لها تحديدا بسبب مكانتها في العالم الإسلامي، وتأثيرها فيه، لأن تغيير نمط خطابها الديني سيؤثر على بقية الدول.

ولا يكون الخطاب متحدثا باسم الأمة، إلاَّ إذا كان لسان حال الأمة الإسلامية، مدافعاً عن مصالحها، ملتزماً بقضاياها، مبشراً بفكرها، فليست أفعال الأفراد واجتهاداتهم، بل وأخطاؤهم هي المقياس في تقييم الخطاب الديني في أي بلد.

وعند رغبة المنصف النظر في نوعية الخطاب الديني في أي بلد، فإن أول ما ينصرف إليه نظره: دستورها ونظامها الذي تسير عليه.

ولأن المملكة العربية السعودية قد حددت نوع خطابها الصادر عنها، عبر النظام

الأساسي للحكم، فمن نافلة القول الاكتفاء بما نصت عليه بعض مواده، مما له علاقة بالخطاب الديني، وسأستعرض هنا بعض المواد التي تكلمت عن ذلك:

المادة الأولى: المملكة العربية السعودية دولة عربية إسلامية ذات سيادة تامة دينها الإسلام ودستورها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. ولغتها هي اللغة العربية. وعاصمتها مدينة الرياض.

المادة السادسة: يبايع المواطنون الملك على كتاب الله وسنة رسوله وعلى السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره.

المادة السابعة: يستمد الحكم في المملكة العربية السعودية سلطته من كتاب الله وسنة رسوله.. وهما الحاكمان على هذا النظام وجميع أنظمة الدولة.

المادة الثامنة: يقوم الحكم في المملكة العربية السعودية على أساس العدل والشورى والمساواة وفق الشريعة الإسلامية.

المادة العاشرة: تحرص الدولة على توثيق أواصر الأسرة والحفاظ على قيمها العربية والإسلامية ورعاية جميع أفرادها وتوفير الظروف المناسبة لتنمية ملكاتهم وقدراتهم.

المادة الحادية عشرة: يقوم المجتمع السعودي على أساس من اعتصام أفراده بحبل الله وتعاونهم على البر والتقوى والتكافل فيما بينهم وعدم تفرقهم.

المادة الثانية عشرة: تعزيز الوحدة الوطنية واجب وتمنع الدولة كل ما يؤدي للفرقة والفتنة والانقسام.

المادة الثالثة والعشرون: تحمي الدولة عقيدة الإسلام. وتطبق شريعته وتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر. . وتقوم بواجب الدعوة إلى الله.

المادة الرابعة والعشرون: تقوم الدولة بإعمار الحرمين الشريفين وخدمتهما. وتوفر الأمن والرعاية لقاصديهما بما يمكن من أداء الحج والعمرة والزيارة بيسر وطمأنينة.

المادة الخامسة والعشرون: تحرص الدولة على تحقيق آمال الأمة العربية والإسلامية في التضامن وتوحيد الكلمة وعلى تقوية علاقاتها بالدول الصديقة.

المادة السادسة والعشرون: تحمي الدولة حقوق الإنسان وفق الشريعة الإسلامية.

المادة التاسعة والعشرون: ترعى الدولة العلوم والآداب والثقافة وتعنى بتشجيع البحث العلمي وتصون التراث الإسلامي والعربي وتسهم في الحضارة العربية والإسلامية والإنسانية.

المادة الخامسة والأربعون: مصدر الإفتاء في المملكة العربية السعودية كتاب الله تعالى... وسنة رسوله ﷺ ويبين النظام ترتيب هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء واختصاصاتها.

المادة الثامنة والأربعون: تطبق المحاكم على القضايا المعروضة أمامها أحكام الشريعة الإسلامية وفقاً لما دل عليه الكتاب والسنة وما يصدره ولي الأمر من أنظمة لا تتعارض مع الكتاب والسنة.

المادة الخامسة والخمسون: يقوم الملك بسياسة الأمة سياسة شرعية طبقاً لأحكام الإسلام ويشرف على تطبيق الشريعة الإسلامية والأنظمة والسياسة العامة للدولة وحماية البلاد والدفاع عنها.

المادة السابعة والستون: تختص السلطة التنظيمية بوضع الأنظمة واللوائح فيما

يحقق المصلحة أو يرفع المفسدة في شئون الدولة وفقاً لقواعد الشريعة الإسلامية وتمارس اختصاصاتها وفقاً لهذا النظام ونظامي مجلس الوزراء ومجلس الشورى[١].

فهذه المواد تمثل في حقيقتها تبيينا لنوع الخطاب الديني في المملكة العربية السعودية، الذي تسير عليه منذ إنشائها على يد الملك الإمام عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود رحمه الله، وإلى اليوم.

ولا زالت جميع هيئات الدولة ومؤسساتها تسير على وفق ذلك، ويحث عليها الملوك والمسؤولون.

لماذا يتهم الخطاب الديني في المملكة العربية السعودية:

ومع كل ذلك الوضوح في نظام المملكة الأساسي، وجميع ما يصدر منها من توجيهات، إلا أن هناك نقدا بين فترة وأخرى للخطاب الديني فيها، ولا تختلف التهم الموجهة للخطاب الديني فيها عن التهم الموجهة إلى الخطاب الديني بعامة، غير أني أرى أن ثمة أسبابا غير ما سبق ذكره، أظن أن لها دورا كبيرا في إصدار مثل تلك التهم، تتمثل في التالي[٢]:

السبب الأول: الحسد والخوف على المصالح:

من يتأمل كثيرا مما يطلق من تهم تجاه الخطاب الديني في المملكة يجد أن وراءه حسدا من بعض المناوئين لهذه الدولة، سواء كان ذلك بطريقة ظاهرة من بعض الدول والحكومات، أو من أشخاص وهيئات مدعومة من تلك الدول.

---

(١) انظر النظام الأساسي للحكم.

(٢) انظر بسطا حول هذه الأسباب وغيرها في كتاب إسلامية لا وهابية للدكتور ناصر العقل ١٥٩-١٦٨.

ولعلي أستذكر هنا مقولة أبي جهل عن النبي ﷺ حين سأله الأخنس بن شريق الثقفي، وكانا قد استمعا شيئا من القرآن: ما رأيك يا أبا الحكم في ما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي، يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه... والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه، واستمر على عناده، يثير الناس على محمد رسول الله ﷺ وأصحابه، لا يفتر عن الكيد لهم والعمل على إيذائهم[1].

ولا زال من هم على نفس قصد أبي جهل من الحسد والعناد وابتغاء الأذية للإسلام والمسلمين إلى يوم القيامة.

ومن ذلك ما عايشته دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في بداية نشأتها، وهي سنة الله في رسله قبل ذلك، ولا تزال هذه الدولة تعيشه من بعض الحاسدين على ما من الله به عليها من علو في الدين والدنيا.

ويزيد من ذلك أن بعض الناس يتضررون كثيرا من بقاء الخطاب الديني في المملكة على حالته التي رسمت له في النظام الأساسي للحكم، لتعطل كثير من مصالحهم وأغراضهم، التي قد تكون غير متوافقة مع شريعة الإسلام، أو يرغبون بها صرف الناس عن المنهج الحق.

السبب الثاني: اختلاف الأهواء والمناهج:

الناظر بعين الإنصاف في ناقدي الخطاب الديني في المملكة العربية السعودية،

---

(١) انظر القصة كاملة في سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥، والسيرة النبوية لابن كثير ١/ ٥٠٦.

يلحظ وجود اختلاف بين المنهج الذي تسير عليه المملكة في نظامها وتشريعها، وبين ما يسير عليه الناقد سواء في المعتقد أو التصور.

فإذا ظهر ذلك، فلا بد أن يسعى المخالف إلى نقد الخطاب الديني في المملكة، لا لأنه خطاب ناقص، بل لأجل أن يتوافق مع معتقده أو تصوره، وهنا يكون النقد غير منطقي وغير مقبول.

ولذلك تجد كثيرا من المنصفين إذا تبين لهم منهج المملكة العربية السعودية، وما هي عليه في نظامها وتعاملها، ووقف على براهين ذلك، رجع عما سبق أن ذكره من نقد، ولعل شهادات كثيرة حظيت بها المملكة العربية السعودية من عدد من المنصفين من المسلمين ومن غيرهم أكبر شاهد على ذلك[1].

السبب الثالث: كشف عوار المخالفين:

لعل من أكبر ما يحمد لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: أنها كشفت عوار وخلل الدعوات الأخرى، وما هي عليه من خلل في الاعتقاد والتصور.

ولذلك، فإن الخطاب الديني في المملكة بما اكتسبه من قدرة على كشف عوار المخالفين من الدعوات المنتسبة إلى الإسلام، جعل بعض المنتسبين لتلك الدعوات يشكك في مصداقيته أو يثير الشبه حوله.

---

(١) اهتم عدد ممن ألفوا في هذا الجانب وهو الدفاع عن المملكة العربية السعودية لسرد شهادات الناس لهذه الدولة سواء كانوا من المسلمين أو من غير المسلمين، ومن أمثل من جمع في ذلك الدكتور ناصر العقل في كتابه (إسلامية لا وهابية) فقد عقد فصلا في ذلك (٣٠٥-٣٥٨) فليراجع.

وقد استعرضت بعض ما كتب في بعض وسائل الإعلام حول الخطاب الديني في المملكة، فلحظت أن غالب من تكلموا فيه كانت لهم سوابق مع الخطاب الديني في المملكة، فكان كلامهم مفتقدا العدل والإنصاف، لظهور لغة الانتقام فيه[١].

ما يقع من خطأ، هل ينسب للخطاب الديني أم لأفراد الناس:

مع أن الخطاب الديني للمملكة وفق ما ذكرته آنفا؛ إلا أنه قد يقع تجاوز من أفراد المجتمع في خطابهم، فقد يتجاوز الناس بشتى طبقاتهم في بعض الأمور، بسبب من الأسباب الذي ذكرناها في أسباب اتهام الخطاب الديني بتلك التهم، ثم يؤول ذلك إلى نسبة هذا الفعل من الأفراد إلى الخطاب العام للدولة أو مؤسساتها.

فخرج من أبناء البلد من يدعو إلى جهاد غير شرعي، وخرج منهم من خرج على أهل بلده بالقتل والترويع، وخرج منهم أيضا من دعا إلى الانحلال في الدين أو تبنى بعض التهم التي ذكرنا جزءا منها.

وكان من أثر ذلك اتهام المملكة بأنها مصدر للإرهاب، أو اتهام للدين الإسلامي الذي ينتمي إليه من سبق ذكر تجاوزاتهم.

والحق الذي لا مرية فيه أن نسبة هذه التجاوزات إلى الدين أو إلى البلد الذي ينتسبون إليه خطأ في التصور، وخطأ في الحكم.

فقد ذكرنا فيما سبق أن ثمة فرقا بين أن يكون النقد موجها للخطاب الديني وبين أن يكون موجها لبعض الأفراد وما يصدر منهم، ولهذا فإنه من الطبيعي جدا أن

---

(١) انظر على سبيل المثال: ما نشرته صحيفة إيلاف الالكترونية على موقعها بعنوان: الخطاب الديني السائد في السعودية يهمش الحضاري ويعتني بالروحي.

تحدث أخطاء من بعض المنتسبين للدعوة، لأنهم بشر عرضة للخطأ والزلل، لكن الخطأ في الحكم أن ينسب خطؤهم للخطاب الديني كله، أو للبلد كله.

فقد حصل في عهد النبي ﷺ من بعض الصحابة بعض التجاوز الذي صححه لهم ﷺ، ولم ينسب ذلك إلى النبي ﷺ، لأنه فعل أحد أصحابه، بل تعامل النبي ﷺ مع ذلك الخطأ والزلل معاملة قوية جادة، تبرأ فيها من الفعل ومن فاعله.

وسنضرب هنا ثلاثة أمثلة من هديه ﷺ، توضح الموقف الذي وقفه ﷺ من قصور بعض أفراد المسلمين في تطبيق الخطاب الديني في عهده، مع أن الأمثلة كثيرة.

المثال الأول: ما ورد في سبب نزول قول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧] فقد ذكر أهل الحديث والسير في سبب نزول هذه الآية ـ كما ذكرها مفصلة البيهقي في سننه[1] أن النبي ﷺ بعث عبد الله بن جحش على سرية قبل موضع يقال له نخلة ليرقب قريشا، ولم يأمره بقتال، ولم يتبينوا أنهم كانوا في الشهر الحرام فلما رأوا عيرا لقريش رمى أحد أفراد السرية عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسروا عددا منهم، وهرب

---

(١) روى هذه القصة كاملة البيهقي في سننه (٩/ ٩٩) وابن شبة في تاريخ المدينة ٢/ ٤٧٢، والنسائي في السنن الكبرى ٨/ ١٠٧، وغيرهم.

منهم من هرب، واستاقوا العير فقدموا بها على رسول الله ﷺ، فقال لهم: «والله ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام».

فأوقف رسول الله ﷺ الأسيرين والعير، فلم يأخذ منها شيئا، فلما قال لهم رسول الله ﷺ ما قال أسقط في أيديهم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين، وقالت قريش حين بلغهم أمر هؤلاء: قد سفك محمد الدم في الشهر الحرام، وأخذ فيه المال، وأسر فيه الرجال، واستحل الشهر الحرام، فأنزل الله في ذلك: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ .

فالله سبحانه وتعالى من عدله لم يصوب المسلمين فيما فعلوا، بل قال عنه: إنه كبير، فبين أنه خطأ، ولو كان صادرا من مسلم، ثم ذكر سبحانه ما عند المشركين من أخطاء هي أكبر من هذا الخطأ فقال: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾، فبين سبحانه أن صد المسلمين عن دينهم أعظم من القتل في الشهر الحرام.

فلما نزلت تلك الآية أخذ رسول الله ﷺ العير، وفدى الأسيرين، فقال المسلمون: أتطمع لنا أن تكون غزوة، فأنزل الله فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فهذا المثال من أوضح الأمثلة على أن الخطأ إذا وقع من مسلم فينسب الخطأ فيه إلى فعل البشر، وينكر على صاحبه، ولا يكون ذلك الخطأ منسوبا إلى الدين أو أهله.

المثال الثاني: قصة أسامة بن زيد ﷺ التي رواها البخاري وغيره أنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، فصبحنا القوم، فهزمناهم قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، قال: فلما غشيناه، قال: لا إله إلا الله، قال: فكف عنه الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا، بلغ ذلك النبي ﷺ، قال: فقال لي: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله»، قال: قلت يا رسول الله إنما كان متعوذا، قال: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله»، قال: فما زال يكررها علي، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[1].

فأسامة ﷺ تجاوز الهدي الشرعي في عمله، ولم يرتض ذلك النبي ﷺ، بل تبرأ من عمله وعنفه، فلا يمكن أن ينسب ذلك العمل الذي قام به أسامة إلى الإسلام بعامة، بل هو خطأ وقع فيه أحد المسلمين بُيِّن له خطؤه فتبينه.

وكذلك الحال بالنسبة لمن يقع اليوم من أفراد المسلمين في مخالفات شرعية، لا يجوز بحال نسبة ذلك الفعل إلى الخطاب الديني في المملكة، أو في غيرها من البلدان، ومهما وقع فيه أفراد من المسلمين من مخالفة للطريق السوي، فلا يجوز بحال أن ينسب ذلك إلى الخطاب الديني.

المثال الثالث: قصة قائد السرية، التي أمر أتباعه بالدخول في النار، فقد روى البخاري ومسلم عن علي ﷺ قال: بعث النبي ﷺ سرية، فاستعمل رجلا من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطبا؟ فجمعوا، فقال: أوقدوا نارا، فأوقدوها، فقال:

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٣٦٤) ومسلم (١٤١).

ادخلوها، فهمُّوا، وجعل بعضهم يمسك بعضا، ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ، فقال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف**»[1].

فهذا القائد الذي بعثه النبي ﷺ طبق الأمر النبوي حسب فهمه، وأراد أن يقذف كل من معه في النار، وهذا غلو شديد في الفهم، ولا يمكن بحال وصف الخطاب الديني بأنه كذلك، بل هذا اجتهاد أو فتوى صدرت حسب فهم هذا الصحابي، بيَّن النبي ﷺ خطأها.

فكذلك الحال حين يصدر من بعض المنتسبين إلى الإسلام والعلم الشرعي فهم مخالف للفهم الصحيح، لا ينبغي أن ينقل ذلك إلى الخطاب الديني، أو إلى الدولة أو المؤسسة الدينية في البلد، بل يبقى اجتهادا فرديا مخالفا للصواب، بل قد يكون خطأ صريحا وقع من أحد الأفراد، والخطاب الديني بريء منه، والأمثلة من الواقع على مثل ذلك كثيرة.

وهذه المسألة من المسائل المهمة التي عزبت عن أذهان كثير من الناس، حتى في أمور دنياهم، ففرق بين خطأ الفرد، وخطأ المجتمع، وفرق بين مخالفة الفرد للنظام وبين خطأ في النظام ذاته، لأنه إذا اتضح هذا الأمر عرف الداعي والباحث عن الحق طريق الصواب، وأنه ينظر فيه إلى ما ورد في أصل المسألة، لا ما فعله أو فهمه بعض الأفراد.

وبهذا القدر أكون قد أنهيت ما وعدت بالكتابة عنه حول الخطاب الديني المعاصر، وأسأل الله تعالى أن أكون وفقت فيه للصواب، والحمد لله رب العالمين.

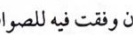

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣٩٩٥) ومسلم (٣٤٢٥).

فهرس الموضوع

الموضوع	الصفحة
المقدمة.	٣
مفهوم الخطاب الديني.	٦
معنى الخطاب في اللغة.	٦
معنى الدين في اللغة.	٧
المفهوم الجامع للخطب بالديني.	٨
نشأة فكرة الخطاب بالديني.	٩
التسمية بالفكر الإسلامي.	١٠
حقيقة إصلاح الخطاب بالديني.	١٢
المطالبون بإصلاح الخطاب بالديني وهدفهم.	١٢
تجديد الخطاب الديني.	١٣
معنى التجديد في الكتاب والسنة.	١٤
معنى تجديد الخطاب الديني.	١٨
صور من معالم تنوع الخطاب الديني عند النبي ﷺ.	٢٣
مراعاة أحوال المدعوين وما لديهم من دين سابق.	٢٤
مراعاة المخاطبين في القيام ببعض الشعائر.	٢٤
مخاطبة الناس وإيصال تعاليم الدين إليهم بلغاتهم.	٢٥
استخدام الوسائل التعليمية في توضيح بعض الأمور للناس.	٢٦
أهمية تنويع الخطاب الديني.	٢٦

الموضوع	الصفحة
معالم تنويع الخطاب الديني المطلوب بوجه عام.	٢٧
معالم تجديد الخطاب الديني المطلوب عند الداعية والخطيب.	٢٨
ضوابط استخدام التقنيات الحديثة في الدعوة.	٣٤
دعاوى الخصوم حيال الخطاب الديني.	٣٨
الأسباب الداعية لذلك.	٤٢
السبب الأول: تأويل الجاهلين.	٤٣
السبب الثاني: انتحال المبطلين.	٤٣
السبب الثالث: تحريف الغالين.	٤٤
واقع الخطاب الديني في المملكة العربية السعودية.	٤٦
لماذا يتهم الخطاب الديني في المملكة العربية السعودية.	٤٩
السبب الأول: الحسد والخوف على المصالح.	٤٩
السبب الثاني: اختلاف الأهواء والمناهج.	٥٠
السبب الثالث: كشف عوار المخالفين.	٥١
هل ينسب للخطاب الديني أم لأفراد الناس.	٥٢
المراجع.	٥٧
الفهرس الموضوع.	٦٠

الخطاب الديني المعاصر